الفصل الخامس

المجتمع المسلم

● **مفهوم المجتمع :**

يعرف « تيماشيف »(١) المجتمع بأنه « يتكون من بنى الانسان فى وجودهم الذى يقوم على التضامن والاعتماد المتبادل » . وهـذا يعنى ان المجتمع يسمح بنوع من الاكتفاء الذاتى فى الغالب .. ذلك ان الجماعة لا تسمح ـ بمجالاتها الضيقة ـ باشباع كل حاجات الانسـان بالمستوى الحضارى الملائم ، ما لم تتكامل تلك الجماعات مع غيرها بما يشـكل المجتمع بالصورة التى تضم العديد من المؤسسات والنظم الاجتماعية التى تستطيع بامكاناتها الفسـيحة ان توفر كل وسـائل الاشباع الحضـارى للانسان . وعلى ذلك فانه اذا كانت الثقافة هى طريق المجتمع واسلوبه ، فان المجتمع هو الحياة عينها ، حيث ان المجتمع حقيقة جوهرية فى حياة الانسان ، لا يستطيع بدونه ان يشبع دوافعه اشباعا حضاريا ملائما ، اذ أن المجتمع يجعل الحياة الاجتماعية ميسورة .. ان المجتمع هو الذى يشكل افكار الفرد وقيمه الاجتماعية ، ويحـدد ادواره وانماط سلوكه ، ومن ثم فان وجود الفرد يتوقف على وجود المجتمـع ، وبالتالى فان الثقافة لا توجد بدون وجود المجتمع . ومن هـذا تتضح اهمية الفرد للمجتمع واهمية المجتمع للفرد(٢) .

ويرجع الى الشـعور الفطرى لدى الانسـان « بالاحساس الجمعى Inherent Sociability » الفضـل فى ضرورة قيام المجتمع ، ولذلك

---

(١) N. Timasheff **Sociological Theory : Its Nature and Growth**, (3 rd. ed.) (N. Y. : Random House. 1976). p. 10.

(٢) زيدان عبد الباقى ، **مرجع سابق** ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

فان الحد الأدنى للشروط المطلوب توافرها فى اى جماعة من الناس لكى يطلق عليها مصطلح « مجتمع » هو أن يتكون من اسرتين او اكثر ترتبطان بروابط معينة ، وانسب وصف لهـذا المجتمع هو « العشـيرة Clan » ومن بعـدها « القبيلة Tribe » ثم القرية ، ثم المدينة المستقلة ، ثم الدولة ·· وعلى الرغم من ان العشـيرة او القبيلة قد تكون ـ فى الحقيقـة ـ أقل عـددا من القرية او المدينـة ، غير ان القبيـلة ذات « ديمومة ذاتيـة Self - Perpetuating » بشكل يفوق ديمومة أفرادها او استمرارهم ، باعتبار ان الفرد فان والقبيلة باقية ومستمرة وقابلة للزيادة ، طالمـا كانت قادرة على ضم اعضاء جدد من المواليد · وليس معنى ذلك ان القبيلة باقية الى الأبد ·· انما يمكن ان تتفكك كلية او ان تذوب وتندمج فى مجتمع آخر اكبر منها ، او ان تحتفظ بكيانها دون ان يكون لها وضع متميز · وهـذا ما حدث للقبائل التى هاجرت من الجزيرة العربية او من المغرب العربى الى مصر ، وادخلت بالتدريج فى نظام اجتماعى اوسع ، مما ادى الى صهرها فى بوتقة ذلك المجتمع ، بحيث اصبحت اثرا يذكر · وهـذا بعكس الحال فى مجتمعات القرى والمدن ·

مما تقدم يمكن تعريف المجتمع « كجماعة منظمة من الناس ومرتبطة بروابط تضامنية فى شكل انساق للحياة ، تقام لتوفير امكانية التفاعلات الطبيعية من خلال نظم تضمن لهم توفير متطلبات حياتهم والدفاع عن انفسهم » · وينطوى هـذا التعريف على بعض المصطلحات والمفاهيم التى يتطلب الأمر ضرورة تناولها بالدراسة ، ومن امثلتها ما يأتى(٣) :

١ ـ التنظيم (Organization) :

ان **المجتمع ـ ايا كان** مستوى تحضره ـ بدائيا كان او متخلفا او متحضرا ، فمن الضرورى ان يظهر فيه نمط من الحياة الاجتماعية يميزه عن اى مجتمع آخر سـواه ·· ذلك ان الحياة الاجتماعية تتطلب وجود قواعد وتنظيمات لتوجيه انماط السلوك ولتوقيع الجزاءات على المخالفين

---

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٥ ـ ٩٩ ·

لتلك القواعد السلوكية أو المعتدين على النظام الاجتماعى . ووجود مثل هـذه القواعد والتنظيمات ضرورى بل هو « ضرورة اجتماعية » لتيسير القيـام بالأعباء والمهام الناتجة عن خاصـية الانتماء الى المجتمع فى شكل متكامل .

وترتيبا على ذلك ، فان كل جماعة من الناس لا تملك تلك القواعد والتنظيمات ليست أهلا لأن يطلق عليها اصطلاح « مجتمع » ، ما دامت قد فشلت فى وضع القواعد التى تنظم حياتها الاجتماعية ، وبالتالى فان مثل تلك الجماعة تعتبر غير فعالة . ومن هنا ، فان الجماعة التى توصف عن جدارة بـ « المنظمة الاجتماعية » هى التى يعرف كل عضو فيها ما هو متوقع منه ، وما يتوقعه من الجماعة ككل ومن كل عضو من أعضائها ؛ وبالتالى فانه يؤدى دوره ـ كما تؤدى الجماعة دورها ـ فى وضوح كامل .

ومن شأن الأخذ بتلك القواعد والتنظيمات باستمرار أن يتحول على المدى البعيد الى عادات مكتسبة تؤدى الى توفير الجهود فى العلاقات والمعاملات بين الأفراد ، وتسمح للجميع بأداء واجباتهم تلقائيا ، وفى ذات الوقت يوجهون انتباههم الى الأعمال والمهام الأساسية .

٢ ـ التضامن والتماسك (Solidarity) :

لا يقوم المجتمع ـ كما أوضحنا ـ بدون روابط معينة تربط الأفراد والجماعات بعضهم بالبعض الآخر داخل المجتمع . ومن أهم تلك الروابط فى المجتمع ، « الرابطة الزواجية Conjugal » التى تقوم عليها الأسرة . وترجع أهمية تلك الروابط الأسرية الى أنها تنطوى على أسس بيولوجية ونفسية بالاضافة الى الأسس الاجتماعية . وبجوار تلك الروابط ، توجد الروابط القانونية وروابط الجوار والزمالة وما الى ذلك . وترجع قوة هـذه الروابط الى الأسس الاجتماعية التى تقوم عليها ، ومن هنا فاننا نستدل على بنـاء المجتمع أو « البنـاء الاجتماعى Social Structure » من معرفتنا لتلك الروابط .

وقد اسـتخدم الرسـول عليه أفضـل الصـلاة والسـلام مفهـوم

« البنـاء » بما يفيـد معنى « البنـاء الاجتماعى » فى مجال توضيحه للعـلاقات الاجتماعية التى تربط المجتمـع الاسـلامى ، مشـبها اياها بـ « البنيان المرصـوص » :

ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشـد بعضـه بعضـا » .
(رواه البخارى ومسلم)

ـ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسـد الواحد ، اذا اشـتكى منه عضو تداعى له سـائر الجسد بالسهر والحمى » .
(رواه البخارى ومسلم)

ويلاحظ أن البناء الاجتماعى بالمعنى الاسـلامى له جانبان : احدهما ثابت لا يتغير باعتباره بمثابة الوعاء الضرورى للحفاظ على صـورة التنظيم الأسـاسى للمجتمع الانسـانى ، وقـد اشـار اليه القرآن الكريم بقوله تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ..** » . (الحجرات : ١٣)

وذلك ليكفل للبناء الاجتماعى الاستمرار والاطراد والثبات . وثانيهما هو الجانب المتغير الذى يتجسـد فى شـكل العلاقات الاجتماعية مثل : المؤمن وغير المؤمن ، والمتزوج والعزب .. الخ . وهنـا تظهر بوضـوح سـمات البناء الاجتماعى ، اذ يمكن بالرجوع الى التاريخ الاسلامى التعرف على الأمم السـابقة وكيف انهار بناؤها الاجتماعى نتيجة عـدم الاطراد الايجابى للعلاقات الاجتماعية ، وذلك بانتشار عادات سـيئة تخالف الأوضـاع الطبيعية الملائمة لحياة الانسـان فى المجتمع .

واذا اخـذنا مجتمعا أبسـط مثل القبيلة ، فاننا نجـد التضـامن يقوم فيها على روابط الدم ، فتعتبر القبيلة أكثر التحاما ، وتنمو روابط القرابة التى تؤدى الى زيادة «التماسـك الاجتماعى Social Cohesion » الذى يربط بين الأفراد والقبـائل ويزيد من قوتها . وقد رأينا أن القبائل العربية فى صـدر الاسلام استطاعت ـ بتضـامنها ـ أن تنتصر على قوى

الفرنجة الأكثر عددا وعتادا ، نتيجة التضامن والتماسك الاجتماعى وقوة العقيدة الاسلامية .

* * *

مفهوم المجتمع الاسلامى

المجتمع فى الاسلام مجتمع معنوى ، اى ان العلاقات الاجتماعية فيه بنيت على أساس القيم الانسانية من مودة ورحمة ، لا على أساس من العلاقات المادية فقط ، لذلك يقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . ولا شك ان العلاقات المعنوية التى تقوم على المودة والرحمة هى التى يقوم عليها بنيان الجماعات الانسانية ، وهى الروابط التى تربط افراد الناس بعضهم بالبعض الآخر .. أما المجتمع المادى الذى يبنى على الاقتصاد او على الاجتماع فى مكان ، فانه كمثل الأحجار المتراصة التى يجاور بعضها بعضا من غير ارتباط وثيق بين أجزائها ، ولا يمكن ان يكون متلاحما متصلا ، ولا يستمر مجتمعا ثابتا مستقرا ، الا اذا كان مهندس البناء قائما عليه يتتبع ثغراته ، فيسارع بسد ما يظهر منها بعمل مادى قد يكون قوة غالبة على الارادات الانسانية الحرة .

أما المجتمع المعنوى فانه يقوم على اساس من العلاقات الروحية التى تربط بين أجزائه ، وهو متماسك غير قابل لأن تتداعى لبناته ، لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع ما دام يغذى بالروح وبالدين .. لذلك كان كل نظام وضعه الاسلام بالقرآن او السنة النبوية ، يقوم أساسا على التوجيه الدينى الذى يغذى نفوس الأفراد لتجتمع ، ونفوس الجماعات لتأتلف ، ونفوس الحكام ليعدلوا فى دولتهم وليعدلوا مع غيرهم وليعاملوهم بالمثل فى دائرة التقوى والفضيلة .

وقد عمل الاسلام على اقامة ذلك المجتمع الفاضل فى كل الأرض ، لأنه دين عام يخاطب الانسانية كلها .. وكان من ذلك محاربته للأوهام

وللأخيلة الفاسدة ، كما كانت دعوته الى الوحدة الانسانية العامة لايجاد مجتمع فاضل ، وكان منها دعوته العامة للانسانية ثم كانت شريعته العادلة .. بيد أنه لا بد من تربية للنفوس ، وتربية للجماعات ، **ليتكون** من ذلك **الاجتماع** الانسانى مجتمع متآلف **متحاب غير متنافر أو متباغض** .

وان التربية الروحية تقوم على تربية الضمير ليكون صاحبه مؤتلفا مع الجماعة ملتقيا معها ويؤثرها على نفسه ، ويحب الناس لله ، ويكون مستجيبا لقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشىء لا يحبه الا لله » ، ويكون ممن قال فيهم النبى ﷺ : « ان لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله تعالى يوم القيامة » . قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « قوم تحابوا بروح من الله على غير أرحام تربطهم ولا أموال يتعاطونها ، والله انهم لنور وانهم لعلى نور ، لا يحزنون اذا حزن الناس ولا يخافون اذا خاف الناس » : « **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم** » . (يونس : ٦٢ ـ ٦٤)

ولقد كانت العبادات لتربية الضمير الانسانى حتى يأتلف **المؤمن** مع غيره ، ويرتبط به ارتباطا روحيا . وما كانت العبادات لحاجة الله تعالى اليها ، ولا لمجرد التقرب اليه سبحانه ، حتى يكون ذات التقرب ولو بظاهر من القول غرضا مقصودا .. وانما كانت العبادات لتربية الضمير الدينى اللوام عند ارتكاب معصية أو مقاربتها ، وللاحساس بالاطمئنان اذا كان متذكرا لله سبحانه وتعالى(٤) عملا بقوله الكريم : « **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » .
(الرعد : ٢٨)

* * *

---

(٤) محمد أبو زهرة ، **المجتمع الانسانى فى ظل الاسلام** (ط ٢) . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ ، ص ١٢١ ـ ١٢٤ .

الجماعة المسلمة هى الأفراد جميعا فى صلات بعضهم ببعض . ووجودهم كحقيقة مستمد من وجود الأفراد كحقائق قائمة . ولم يعرف القرآن الكريم فى أوامره ونواهيه ، وفى وصاياه العامة ، الجماعة المسلمة بعيدة عن المؤمنين أنفسهم .. بعيدة عن ذواتهم وأشخاصهم . يقول الله تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** .. » . (البقرة : ٢٥٧)

ولا شك أنه يقصد بالولاية هنا ـ التى تعنى التولى والتدبير والحماية ـ الجماعة المؤمنة ، ولكنه فى اعلانه هذه الولاية أعلنها لهذه الجماعة فى أفرادها بصيغة الجمع وهم «**الذين آمنوا**» . **وكذلك عندما يوجه** أمرا أو نهيا عاما يوجهه الى المؤمنين فى صيغة الجمع ، كما فى قوله تعالى : « **واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا** .. » . (النحل : ٩١)

وكذلك الشأن عندما يخبر عن حال عامة ، يخبر عنها مسندة الى الأفراد مجتمعين ، كما فى قوله تعالى : « **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا** » (الأحزاب : ٥٨)

واذا كانت الجماعة المسلمة هى الأفراد بعينهم وأشخاصهم ـ كانت علاقة الفرد بالجماعة ، هى نفسها علاقة فرد ببقية الأفراد الآخرين معه . فالفرد لم يلغ اذن ، وهو باق بكيانه الشخصى المستقل ، ووجوده كفرد وكوحدة مستقلة لم يمس ، وكل ما وجد له **من الجماعة** التى هو عضو فيها ـ أنه قد أضيفت اليه **اعتبارات** خاصة بحكم هذه الجماعة ، وهى اعتبارات الروابط المتبادلة بين كل فرد والآخرين معه فى الجماعة . وهى اعتبارات الواجبات التى تؤدى من قبل الفرد نحو الآخرين معه ،

والحقوق التى تعطى له من هؤلاء الآخرين معه . وعلى ذلك فالفرد جزء هام من كيان الجماعة ، ليس استقلاله فى التصرف استقلالا مطلقا ، وليست حريته مستقلة عن كيان الجماعة .

والفرد مع الأفراد الآخرين ، أو الفرد مع الجماعة ـ من وجهة نظر الاسلام ـ وحدة تتفاعل مع غيرها ، تأخذ وتعطى ، لها استقلال مقيد ، وحرية مقيدة . والفواصل التى تحدد استقلال الفرد فى الجماعة المسلمة فى التصرف والتملك على السواء هى الفواصل التى بين الحلال والحرام . والحلال بين والحرام بين . فالحلال هو ما يمثل النفع الفردى أو النفع العام ، وهو نفع الآخرين مع الفرد فى الجماعة . والحرام عكس ذلك ، فهو يمثل الضرر الفردى أو الضرر العام ، وهو ضرر الآخرين مع الفرد فى الجماعة . وعلى ذلك فالفرد محدود بحدود علاقته بالآخرين .. فان تجاوز فى تصرفه وتملكه دائرة النفع ، فتصرفه وتملكه عندئذ غير مشروع . وحينئذ يجب أن يرد الفرد الى دائرة النفع ، ويحال بينه وبين الاضرار بالآخرين اضرارا ماديا او أدبيا . وهنا يأتى دور الحكومة والولاية العامة . وقد أوجب الاسلام على المؤمنين طاعة رسالته ، كما أوجب الاحتكام اليها عند النزاع والاختلاف(٥) قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » . (النساء : ٥٩)

* * *

● **وحدة الجماعة :**

كل منا قد انتمى فى وقت أو آخر الى احدى الجماعات الخاملة ، كما أننا خبرنا بالمثل عضوية جماعات ذات أهداف واضحة ووسائل فعالة

---

(٥) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨

لتحقيق هذه الأهداف . ويلمس الناس عادة هذه السمة من سمات عمل الجماعة ، فاذا كان للجماعة أهداف واضحة وكانت تسعى لتحقيق هذه الأهداف ، ازداد عادة الرضا الشخصى للأعضاء وارتفعت روحهم المعنوية .

واننا فى الغالب نحتاج الى معرفة العوامل التى تحدد فاعلية الجماعة ، وما يساعدنا على تدعيم وحدة الهدف فى الجماعة ويجعلها اكثر قدرة على تحقيق أهدافها . ويمكن تحديد العوامل المؤدية الى فاعلية الجماعة فى العناصر التالية :

١ ـ درجة وجود هدف واضح .

٢ ـ درجة نجاح الهدف الجماعى فى تعبئة طاقات الأعضاء للقيام بالنشاط الجمعى .

٣ ـ درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالهدف الذى ينبغى أن يوجه نواحى نشاط الجماعة .

٤ ـ درجة الصراع بين الأعضاء فيما يختص بالوسائل التى يجب أن تستخدمها الجماعة للوصول الى أهدافها .

٥ ـ درجة التنسيق بين أوجه نشاط مختلف الأعضاء على النحو الذى تستلزمه أعمال الجماعة .

٦ ـ مدى حصول الجماعة على الموارد المطلوبة ، سواء أكانت اقتصادية أو ثقافية أو غير ذلك(٦) .

* * *

● **الجماعة الاسلامية ذات هدف موحد :**

ان الجماعة لا تكون جماعة الا اذا اتحدت على هدف ، وتمثلت صورة هذا الهدف فى نفس كل فرد من أفرادها تمثلا واضحا ..

---

(٦) محمد طلعت عيسى ، **مرجع سابق** ، ص ١٣٠ ـ ١٣١

وبظهور الاسلام قامت الجماعة الاسلامية ، فأى شيء وحد هذه الجماعة ؟ أى حدف التف حوله ومن أجله المسلمون حتى صاروا جماعة معينة ؟ وما هى ايجابية الاسلام نحو وحدة الجماعة المسلمة ؟ .. ان وحدة الهدف فى الجماعة الاسلامية هى عبادة الله الواحد ، قال تعالى فى كتابه الكريم : « **ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل** » . (الأنعام : ١٠٢)

وسبيل الله هو سبيل الوحدة اذن بين المسلمين .. فالله غاية الجماعة الاسلامية ، وسبيله هو السبيل لهذه الغاية ، قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون** » . (الصف : ١٠ ـ ١١)

السبيل الى الله ايمان وعمل .. ايمان بالله ورسوله ، وعمل بما جاء به الله ورسوله .. ايمان بالله ورسوله حتى يكون الله ورسوله أحب شيء لدى الفرد ، وعمل بما جاء به الله ورسوله حتى تكون الطاعة لما جاء به الله ورسوله فوق رغبات النفس واغراء المادة .

ان ايجابية الاسلام فى وحدة الجماعة عن طريق عبادة الله .. وهى ليست فحسب نصحا للأفراد بأن يعبدوا الله ، ولكن فى حملهم على أن يترجموا هذه العبادة لله فى سلوكهم(٧) . قال تعالى :

● « **ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين** » . (الحج : ١١)

● « .. **ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى** » .

(العلق : ٦ ـ ٧)

---

(٧) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، ص ٢٥٧

● « ان الانسان خلق هلوعا • اذا مسه الشر جزوعا • واذا مسه الخـير منوعا » • (المعارج : ١٩ – ٢١)

● « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمـه منـه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعـل لله أندادا ليضـل عن سـبيله •• » (الزمر : ٨)

● « فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » •
(الزمر : ٤٩)

وما أكثر ما تستولى شهوات النفس على الانسان فاذا هـو منقاد لها ، أسـير فى قيد مطالبها ، لا يرى الحياة الا فى ظل هذا الأسر الذى ألفه وركن اليه • ولم يدرك هذا الانسـان أنه خليفة لله على الأرض ، وانه بحكم هذه الخلافة هو خليفة على نفسه أولا ، وانه حاكم على نفسـه غير محكوم لها ، وانها قوة من القوى التى وهبها الله له ، وان عليه أن يسخرها لمـا فيه خيره فى دنياه وآخرته •

ان رسالة الاسلام هى رسالة توازن وانسـجام بين الأفـراد ، فـ « التوازن » اساس تكوين الجماعة الاسلامية •• وعبـادة المسلمين لله هى تنفيذ هذا التوازن والانسـجام • ولا شىء أدل على التوازن من « الايثار » ، كما أنه لا شىء أدل على عدم الانسجام من « الأثرة » (الأنانية) • وما أوجبه الاسـلام من عبادة وأحكام هو طريق التوازن ، وما حرمه ونهى عن فعله هو عدم الانسجام • فبين الانسان وأخيـه الانسان علاقات ، فاذا سيطر الايثار – على كل منهما فى تعامله مع الآخر كانت المحبة وكان التوازن ، واذا تغلبت الأثرة فى عـلاقاتهما كانت الكراهية والاحتكاك والصراع وعدم الانسجام بينهما •

ان الايثار مجاهدة وجهاد •• مجاهدة فى حمـل النفس على أن تدرك حـق غيرها فى المشـاركة فى الحياة ، وجهاد فى أن تعطى هـذا الحق عمليا لغيرها بصورة فيهـا وفـاء للوجود المشترك • فالايثـار هو

انتغلب على تحكم النفس .. تغلب على طمعها ، وتغلب على حقدها . واذا كان الايثار مجاهدة وجهادا ، فالنفس لا تقبل عليه الا اذا كانت لها غاية تتمثلها تمثلا واضحا وتسعد بادراكها ..

وسبيل الله هو سبيل الوحدة ، وسبيل القوة ، وسبيل البقاء . ولن يصل انسان ما الى الوحدة فى نفسه وفى جماعته ، والى القوة فى نفسه وفى جماعته ، الا بالتحكم فيما تدعو اليه نفسه من نزعات ، وفيما تطلبه من عز وجاه متمثلا فى مال أو ولد ، قال تعالى : « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » . (الكهف : ٤٦)

* * *

● **تماسك الجماعة :**

من المشكلات الرئيسية التى تواجه من يحاولون فهم الجماعات والعمل معها على نحو فعال ، مشكلة الوقوف على كيفية تفسير الاختلافات الكبيرة فى « دوافع التجمع » التى تميز الجماعات بعضها عن البعض الآخر .. لماذا تكون المواظبة غير منتظمة فى جماعة ما بحيث يؤدى ذلك الى موتها ببطء فى حين تظل المواظبة وانواع النشاط وأساليب القيادة فى جماعة أخرى على مستوى عال من الانتظام ؟ ما الذى يجعل جماعة ما تبدو صحيحة وثابتة بصورة تجعل أعضاءها يؤدون عملا شاقا ، ويبذلون فى سبيلها تضحيات كبيرة ، ويكونون أشد اقبالا على تمجيد فضائلها وابراز محاسنها ، ويبدون أكثر سعادة حينما يكونون معا ، ويكونون أسرع فى التأثير على بعضهم بعضا ، وأسرع فى الاتفاق فيما بينهم .. من أعضاء منظمة أخرى لا حياة فيها ؟ هذه الأغراض وما اليها مما نلاحظه كل يوم ، ولكن لا يزال يعوزنا تفسير كامل لطبيعة تماسك الجماعة ومصادر هذا التماسك(٨) .

---

(٨) محمد طلعت عيسى ، **مرجع سابق** ، ص ٣٩

عندما نصف جماعة ما بأنها جماعة متماسكة فاننا نعنى بذلك أن تلك الجماعة يرتبط أعضاؤها بعضهم بالبعض الآخر ارتباطا وثيقا حول بعض الأمور المشتركة فيما بينهم . وترجع أهمية تماسك الجماعة الى ما يعزى اليه من حيث تهيئة الجو الملائم لنمو روح الفريق ، وزيادة الرضا بين أعضاء الجماعة ، وتنمية الروح المعنوية للأعضاء واقتناعهم بأدوارهم فى الجماعة واستمرار احتفاظهم بعضويتها فى مواجهة المعوقات الداخلية والخارجية . ويعتمد ارتباط الفرد بالجماعة بمجموعتين من العوامل :

الأولى : بعض خصائص الجماعة كأهدافها ، وتنظيمها ، ومركزها فى المجتمع المحلى .

الثانية : حاجة الشخص الى الانتماء ، والتقبل ، والأمن ، وغيرها من الأمور التى يمكن أن تكون الجماعات مجالا لتوفيرها(٩) .

وتتعدد العوامل التى تؤثر فى تماسك الجماعة أو تفككها ، كما تتداخل بعضها مع البعض الآخر . وتتلخص هذه العوامل فى الآتى(١٠) :

١ ـ هدف الجماعة :

قد تتجمع الجماعة وتلتف حول هدف واحد أو عدة أهداف ، يتطلب كل منها توجيه بعض جهود أعضاء الجماعة نحو تحقيقه . وكلما كان الهدف واضحا ومحددا فى المجال النفسى لأعضاء الجماعة كلما كان ادراكهم لذلك الهدف دقيقا واضحا . ومن ناحية أخرى فان الجماعة ـ بحكم تعريفها ـ يجمعها أصلا هدف مشترك فيما بين أعضائها . وما لم يجد كل عضو فى الجماعة أن تحقيق أهدافه الذاتية لا يتم الا من خلال تحقيق أهداف الجماعة ، فانه لن يبذل جهدا يذكر لتحقيق أهداف الجماعة ، ولن يشعر بانتماء قوى للجماعة ، وبالتالى

---

(٩) سيد عبد الحميد مرسى ، **العلوم السلوكية فى مجال الادارة والانتاج** ، مرجع سابق ، ص ٢٠٦

(١٠) **المرجع السابق** ، ص ٢٠٧ ـ ٢١١

فان تماسك الجماعة قد يتعرض لبعض العوامل التى تساعد على تفكك الجماعة .

وكلما كانت الجماعة ناجحة فى تحقيق أهدافها كلما أدى ذلك الى تماسك أعضائها . فنجاح الجماعة أو فشلها يعنى ضمنا نجاحها أو فشلها فى تحقيق الأهداف الذاتية لكل عضو فيها ، مما يمثل حافزا ايجابيا أو سلبيا للتمسك بعضوية الجماعة والانتماء اليها .

٢ ـ درجة التجانس بين أعضاء الجماعة :

يلعب التجانس دورا أساسيا فى ايجاد التقارب والتماسك بين أفراد الجماعة ، فكلما زاد التجانس زادت احتمالات التماسك فى الجماعة والعكس صحيح . ويرجع ذلك الى تزايد القدر المشترك من الأبعاد النفسية فيما بين الأعضاء .. فحيث ان مظهر التماسك فى الجماعة هو التزامها بمعايير سلوكية معينة خلال تعامل الأفراد بعضهم مع البعض الآخر ، ولما كانت أنماط السلوك ومعاييره تدور أساسا حول ايمان الأعضاء بقيم مشتركة ، فان التجانس بين الأعضاء ـ وهو فى أساسه التفاف الأعضاء حول مجموعة معينة من القيم ـ لا بد وأن يؤدى فى النهاية الى زيادة التفاهم والتماسك فيما بينهم . وتمتد احتمالات التجانس لتشمل أبعادا مثل : الجنس ، والسن ، والمهنة ، والثقافة ، والمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، والميول ، والعقيدة .

٣ ـ مكانة الجماعة بين الجماعات الأخرى :

كلما كانت الجماعة ذات مكانة مرموقة فى نظر الجماعات الأخرى ، كلما كان الانتساب اليها يكسب الفرد مكانة خاصة نتيجة انتمائه اليها ، بما يؤدى الى توحد الفرد مع الجماعة ، وبذلك يزداد تماسك الجماعة .

٤ ـ حجم الجماعة :

كلما ازداد حجم الجماعة كلما قلت احتمالات التعامل والتفاعل بين أفرادها وجها لوجه . ومن المعروف أن كفاية الاتصال بين أعضاء

الجماعة كفيلة بزيادة التفاهم المشـــترك وادعى الى تقارب المجـــال الادراكى للأعضـــاء • ومن ناحية اخرى فان زيادة حجم الجماعة يتيح فرصـــة اكبر لزيادة التباعد الاجتماعى والنفسى فيما بين اعضـــاء الجماعة ، ومن ثم تضعف القوى التى تعمل على تماسك الجماعـــة وتزداد آثار القوى التى تؤدى الى التفكك •

٥ ـ درجة استقرار العضوية فى الجماعة :

المقصود بذلك هو سرعة الانضمام والانفصال فى عضوية الجماعة • فالمـألوف ان يلتزم اعضـــاء الجماعة بمعايير وقيم معينة مشتركة للجماعة بحيث تصبح ممثلة فى معايير الفرد وقيمه الى درجة ان يعتبرها معاييره وقيمه الخاصـــة • ويســـتغرق امتصاص الفرد لهذه القيم والمعايير بعض الوقت حتى تصبح جزءا من مكونات شخصيته • فانفصال بعض قدامى الأعضاء وانضمام اعضاء جدد يعنى حاجة الجماعة لمزيد من الوقت حتى يتعلم الأعضاء الجدد تلك القيم والمعايير لتعويض الجماعة عن الأعضـــاء الذين انفصلوا عنها • لهذا يلاحظ ان زيادة معدل الدوران فى عضـــوية الجماعة يمثل تهديدا لاســـتمرار تماسك الجماعة ، مما يؤدى الى تفككها فى بعض الظروف •

٦ ـ نوع التعامل السائد بين الأفراد :

لمـا كانت عضـــوية الفرد فى جماعة معينة تستلزم قيامه بأعبـــاء معينة ، ولمـا كانت الأدوار المختلفة فى الجماعة الواحـــدة مترابطة ، فان نوع التعامل الذى يســـود فيما بين الأعضاء له اثر كبير على درجة تماسك الجماعة • فاذا كان الطابع السائد للتعامل السائد بين الأعضاء هو التنافس ، فان اثر ذلك على درجـــة تماسك الجماعـــة يختلف تماما عما اذا كان الطابع السائد للتعامل هو التعـــاون • وعلى ذلك فكثيرا ما تكون طبيعة العمل المشترك الذى تؤديه الجماعة ، وما يفرضـــه ذلك على نمط العلاقات الســـائدة بين افرادها ، ســـببا فى زيادة التماســـك او التفكك بين الأعضـــاء ، كنتيجة طبيعيـــة لنوع العلاقات الســـائدة بين الأعضـــاء •

٧ ـ الضغوط الخارجيـــة :

لمـا كان أسـاس تكوين الجماعة هو القيام بعمل مشترك ، ولمـا كانت المحافظة على البقاء هى احدى الوظائف الأسـاسية للجماعة ، لذلك فان تعرض الجماعة لظروف أو ضغوط خارجيـــة مهددة يؤدى الى زيادة التماسك بين الأعضـاء . وكلما أدرك الفرد أن اشـباع حاجاته وتحقيقها مرتبط ببقاء الجماعة ، وان بقاء الجماعة مهدد من خارجها ، كلما ازداد تماسك أعضـاء الجماعة .

٨ ـ توافق متطلبات الجماعة مع امكانات الفرد :

لمـا كان قيام الفرد بأعباء دوره ومتطلباته فى الجماعة يستلزم منه بذل جهود معينة ، فان تناسب ما يقوم به من أعبـــاء مع قدراته وامكاناته شرط أسـاسى لاحتفاظه بعضوية الجماعة . وفى حالة ما اذا كانت تلك المتطلبات تشـكل خبرات غير سارة أو عبئا ينوء الفرد عن تحمله وتعجز امكاناته عن الوفاء بها ، فان استمراره فى عضوية الجماعة يشـعره دائما بالاحباط والفشـل ولا يغريه على الاحتفاظ بعضـــوية الجمـــاعة .

٩ ـ مدى شعور الفرد بعدالة ما تفرضه عليه الجماعة :

تتمثل عدالة ما تفرضه الجماعة على الفرد فى ناحيتين اساسيتين : الأولى ، عدالة ما تفرضه الجماعة على العضو من أعباء بالنسـبة لمـا تمنحه له من حوافز ، والثانية ، عدالة ما تفرضه عليه الجماعة بالنسـبة لمـا تفرضه على غيره من الأعضاء .. ففى الظروف العادية بالنسبة للفرد تزداد جاذبية الجماعة للفرد وبالتالى تمسكه بعضويتها وانتمائه اليها ، كلما ازداد احساسه بعدالة الجماعة فى هـذه النواحى .

والخلاصـة : أن تماسك الجماعة يمكن أن يزداد كلما أتيحت فرص أفضل لاشـباع حاجات الأفراد . وسوف تزداد جاذبية الجماعة كلمـا تمكنت من أن تهيىء لأعضائها درجـة أفضل من المكانة والقبـول وان تهيىء فرص قيام علاقات تعاونية وتفاعل على درجة أعلى من الحرية .

ويمكن أن يؤدى الهجوم الخارجى الى جعل الجماعة أكثر تماسكا . ومن الواضح أن التماسك لا يزداد ـ عندما تتعرض الجماعة للهجوم ـ الا اذا كانت الجماعة تعتبر مصدرا للشعور بالأمن . وعندما يظهر الجمهور الخارجى تقديرا مناسبا للجماعة فمن الواضح أنها تزداد تماسكا ، وينشأ هذا عن ادراك أعضاء الجماعة بأن العضوية تسهم فى رفع المكانة الشخصية لأعضائها ..

ويبدو أن ميزان القوى التى تؤدى الى تماسك الجماعة وتلك التى تؤدى الى تفككها فى تذبذب مستمر . وعندما يتذبذب الميزان بدرجة كبيرة فان دوران العضوية سوف يكون كبيرا ، واذا كانت فاعلية الجماعة تشجع الجانب السلبى لغالبية الأعضاء فان الجماعة سوف تتفكك دون شك.

ولقد قامت الجماعة الاسلامية على الأسس الآتية :

١ ـ ان تتجه عبادتها الى معبود واحد ، قال تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ..** » . (النساء : ٣٦)

٢ ـ أن تبقى فى سلام مع غيرها من الجماعات الأخرى ، قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين** » . (البقرة : ٢٠٨)

٣ ـ اذا هوجمت من جماعة أخرى يجب عليها الا تستكين لهذا الهجوم : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين** » . (البقرة : ١٩٠)

واذا اعتدى عليها يجب أن ترد الاعتداء بمثله ، قال تعالى : « **.. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** » . (البقرة : ١٩٤)

هذه هى تعاليم الاسلام فى شأن قيام جماعة المسلمين فى علاقاتها

مع الجماعات الأخرى . ان ما أتى به الاسلام فى شأن تماسك الجماعة وبقائها صلبة قوية ، ينبثق أساسا من ذات الايمان بالله ، ويعود أغلبه الى الجانب الروحى فى الانسان(١١) .

فالايمان بالله ـ لا غيره ـ هو الذى ربط بين الفرد وأخيه فى الجماعة الاسلامية . وبناء على ذلك يجب ألا يهجر المؤمن بولائه مؤمنا آخر معه ، ويتجاوز بهذا الولاء وهذا الاخلاص الى من هو عدو لهما معا . قال تعالى فى محكم كتابه : « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير** » .

(آل عمران : ٢٨)

وتوضح هذه الآية الكريمة الى أى مدى حرص الاسلام على تماسك الجماعة الاسلامية وبقائها قوية ، بعد أن قامت وأصبحت لها شخصيتها .. ان تجارب الأيام فى تاريخ البشرية تؤكد أن العامل النفسى فى حياة الفرد والجماعة أقوى من أى عامل آخر سواه . فاذا ضعفت نفس الفرد أو ضعف الترابط النفسى بينه وبين غيره من أعضاء الجماعة ، كان التلاشى والفناء للفرد نفسه وكانت القطيعة والعزلة بينه وبين غيره . وعلى العكس تبرز صورة الوجود والحياة واضحة لمن قويت نفسه ، وكذلك للجماعة التى قويت الصلات الروحية فيما بين أفرادها .

وولاء المؤمن للمؤمن ـ الذى يدعو اليه القرآن الكريم هو أكثر من صلة نفسية وأكبر من شعور روحى متبادل قائم على التعاطف وعدم التنافر بين فرد وآخر . ان هذا الولاء هو الاخلاص فى العلاقة ، هو ايثار الصديق لصديقه ، هو الاحساس القوى بالكيان المشترك للاثنين معا .. وكل ما أتى به الاسلام فى آدابه ووصاياه الخلقية هو فى واقع

---

(١١) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، ص ٢٥٩ .

الأمر ذلك الولاء الذى عبر عنه فى صورة هى تعبير عن الواقع ، أو عما يجب أن يكون ، كما فى قوله تعالى : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ..** » . (التوبة : ٧١)

وكما عبر عنه فى الآية السابقة : « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ..** » . (آل عمران : ٢٨)

ان الجماعة الاسلامية لم تقم بالأمس لتفنى اليوم أو غدا .. ان قيامها كان نتيجة لرسالة من الله ، وكذلك بقاؤها وتماسكها ذو صلة قوية بالايمان ، قال تعالى : « .. **ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز** » . (الحج : ٤٠)

* * *

● **الشعور بالأمن والطمانينة :**

سكينة النفس ـ بلا ريب ـ هى الينبوع الأول للسعادة .. ولكن كيف السبيل اليها اذا كانت شيئا لا يثمره الذكاء ، ولا العلم ، ولا الصحة والقوة ، ولا المال والغنى ، ولا الشهرة والجاه ، ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية ؟

اننا نجيب مطمئنين : أن للسكينة مصدرا واحدا ـ وليس سواه ، هو الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، الايمان الصادق العميق ، الذى لا يكدره شك أو يفسده قلق أو نفاق .. هذا ما يشهد به الواقع الماثل ، وما أيده التاريخ الحافل ، وما يلمسه كل انسان مدرك بصير .. فى نفسه وفيمن حوله .

ولقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقا وضيقا واضطرابا ، وشعورا بالضياع ، هم المحرومون من نعمة الايمان واليقين .. ان حياتهم لا طعم لها ولا مذاق ، وان حفلت بالملذات ، لأنهم لا يدركون لها معنى ،

ولا يعرفون لهـا هدفا ، ولا يفقهون لهـا سرا ٠ فكيف يظفرون مع هـذا بسكينة النفس أو انشراح الصدر ؟

ان هـذه السكينة ثمرة من ثمار دوحة الايمان ، وشجرة التوحيد الطيبة التى « **تؤتى اكلها كل حين باذن ربها** » (ابراهيم : ٢٥) ٠٠ فهى نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين ليثبتوا اذا اضطرب الناس ، ويرضوا اذا سخط الناس ، ويوقنوا اذا شك الناس ، **ويصبروا** اذا جزع الناس ، ويحلموا اذا طاش الناس ٠

هـذه السكينة هى التى عمرت قلب رسول الله ﷺ يوم الهجرة ، فلم يعره هم ولا حزن ، ولم يستبد به خوف ولا وجل ، ولم يخالج صدره شك ولا قلق ٠ قال تعالى : « ٠٠ **فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه** ٠٠» ٠ (التوبة : ٤٠)

هـذه السكينة روح من الله ونور ، يسكن اليه الخائف ، ويطمئن عنـده القلق ، ويستروح به المتعب ، ويقوى به الضعيف ، ويهتدى به الحائر ٠

* * *

● **اسباب السكينة لدى المؤمن :**

قد يسأل سائل : لماذا كان المؤمن أولى الناس بسكينة النفس وطمأنينة القلب ، ولماذا لا يجد الانسان السكينة فى العلم والثقافة والفلسفة ، وفيما انتجه التقدم العلمى من وسائل وأدوات يسرت العيش وجملت الحياة ؟

والجواب عن ذلك يتلخص فى النقاط الآتية(١٢) :

---

(١٢) يوسف القرضاوى ، **الايمان والحياة** (ط ٧) ٠ القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧ ـ ١٠٠

١ ـ استجابة المؤمن لنداء الفطرة :

ان أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هدى الى فطرته التى فطره الله عليها ، وهى فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله ، فعاش المؤمن مع فطرته فى سلام ووئام . ان فى فطرة الانسان فراغا لا يملؤه علم أو ثقافة أو فلسفة ، وانما يملؤه الايمان بالله جل وعلا . وستظل الفطرة الانسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد طريقها الى الله ، وتؤمن به ، وتتوجه اليه .. هناك تستريح من تعب ، وترتوى من ظمأ ، وتأمن من خوف ، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة ، والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق . ولقد قال ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين » :

« فى القلب شعث لا يلمه الا الاقبال على الله .

وفيه وحشة لا يزيلها الا الأنس بالله .

وفيه حزن لا يذهبه الا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته .

وفيه قلق لا يسكنه الا الاجتماع عليه ، والفرار اليه .

وفيه نيران حسرات لا يطفئها الا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك الى وقت لقائه .

وفيه فاقة لا يسدها الا محبته والانابة اليه ، ودوام ذكره ، وصدق الاخلاص له ، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا » .

* * *

٢ ـ اهتداء المؤمن الى سر وجوده :

ان فى أعماق كل انسان أصواتا خفية تناديه ، وأسئلة تلح عليه منتظرة الجواب الذى يذهب به القلق ، وتطمئن به النفس : « ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة » ؟ .. هذه الأسئلة التى ألحت على الانسان منذ خلق ، وستظل تلح عليه الى أن تطوى صفحة الحياة ، لم تجد ـ ولن تجد ـ

لها أجوبة شافية الا فى الدين . فالدين وحده هو الذى يحل عقدة الوجود الكبرى ، وهو المرجع الوحيد الذى يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسئلة بما يرضى الفطرة ، ويشفى الصدور .

والاسلام ـ خاصة ـ خير دين أجاب عن هذه الأسئلة اجابة شافية ، ترضى الفطرة النيرة والعقل السليم ، بل أعلن القرآن الكريم ان هذا الدين هو الفطرة الأصيلة نفسها . قال تعالى : « **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ..** » .

(الروم : ٣٠)

تقول الفطرة والعقل : ان الناس لم يخلقوا من غير شىء ، ولم يخلقوا هم أنفسهم ، ولم يخلقوا ما حولهم ، فيقول القرآن الكريم : « **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون** » . (الطور : ٣٥ ـ ٣٦)

وتقول الفطرة والعقل : لا بد ـ اذن ـ من خالق لهذا الانسان العجيب ، ولهذا الكون العريض ، ولا بد أن يكون هذا الخالق واسع العلم ، بالغ الحكمة ، نافذ المشيئة ، عظيم المقدرة . يقول القرآن : « **ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا اله الا هو ، فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين** » .

(غافر : ٦٢ ـ ٦٤)

وتقول الفطرة والعقل : ان هذا الخالق الحكيم لا بد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون ووضع الانسان فيه غاية وحكمة ، وتعالت حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثا . وأن لهذا الانسان فى الوجود رسالة ، وأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى هى الغاية واليها المنتهى ، يجزى فيها المحسن باحسانه والمسىء باساءته ، حتى لا يستوى الخبيث

والطيب ، وهـذا ما تقتضيه الحكمة . وأن لهذا الخالق العظيم ـ بحكم خلقه لعباده وامدادهم بنعم لا تحصى ـ حقا عليهم : بأن يعرف فلا يجحد ، ويشكر فلا يكفر ، ويطاع فلا يعصى ، ويفرد بالعبادة فلا يشرك به . وفى هـذا المجال يقول القرآن الكريم :

● **« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون »** . (الدخان : ٣٨ ـ ٣٩)

● **« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النـار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »** .

(سورة ص : ٢٧ ـ ٢٨)

● **« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون »** .

(المؤمنون : ١١٥)

● **« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبـلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشـا والسـماء بناء وأنزل من السـماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »** . (البقرة : ٢١ ـ ٢٢)

● **« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قـدير وان الله قـد أحاط بكـل شىء علما »** . (الطلاق : ١٢)

● **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون »** . (الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧)

* * *

٣ ـ نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك :

بهذا الايمان الواضح العميق ، سلم المؤمن من الشك والاضطراب ، واستراح من البلبلة والحيرة العقليـة والنفسـية ، حين عرف مبـداه

ومصيره ، وغايته ومهمته .. بل عرف مبدأ الوجود كله وغايته وهدفه ومنتهاه ، فانحلت عقدة الشك من نفسه ، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته .

لقد عرف أن له ربا ـ هو رب كل شيء ـ هو الذى خلقه فسواه ، وكرمه وفضله ، وجعله فى الأرض خليفة ، وكفل له رزقه ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .. فاطمأن الى ربه ، واعتصم بحبله ، فأوى بهذا الايمان الى ركن شديد ، ولاذ بقرار مكين ، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وعرف المؤمن انه لم يخلق فى هذه الحياة عبثا ، ولم يترك سدى ، فبعث الله اليه رسله بالبينات ، هداة ومعلمين ، ليهتدى الناس الى الحق ، ويستبينوا معالم الطريق ، ويعرفوا ما يرضى الله فيتبعوه ، وما يسخطه فينتهوه . وعرف المؤمن انه ليس غريبا على الكون الكبير من حوله أو معزولا عنه ، انه بايمانه لم يعد وحده . ان هذا الكون كله معه . ففطرة هذا الكون هى الايمان .. هى التسبيح للرب الأعلى . الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى . قال تعالى : « **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا** » . (الاسراء : ٤٤)

* * *

٤ ـ المؤمن يعيش فى معية الله وفى صحبة النبيين والصديقين :

والمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسى الوبيل ، الذى يفتك بالمحرومين من الايمان ، ذلك هو مرض الاحساس بالوحدة المقلقة ، فيحس من يتعرض له أن الدنيا مقفلة عليه ، وانه يعيش فريدا منعزلا ، وأى احساس أمر من هذا الاحساس .. ويجمع المختصون على أن هذا مرض نفسى شديد ، لما يجلبه على صاحبه من عزلة وفقدان الثقة بمن حوله . والايمان القوى هو دواء ناجع لهذا المرض ، كما انه خير وقاية

من شره . والمؤمن يعتقد ان الله معه حيثما كان . ان الله تعالى يقول فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وان تقرب الى شبرا ، تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا ، تقربت اليه باعا . وان أتانى يمشى ، أتيته هرولة » .

(رواه البخارى)

ويقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

● **« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم »** . (البقرة : ١١٥)

● **« وهو معكم أين ما كنتم ، والله بما تعملون بصير »** .
(الحديد : ٤)

● **« .. اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها .. »** . (التوبة : ٤٠)

والمؤمن لا يشعر انه فى عزلة عن اخوانه المؤمنين . انهم يعيشون دائما فى ضميره ، ويحيون فى فكره ووجدانه .. فهو اذا صلى ـ ولو منفردا ـ تحدث باسمهم : **« اياك نعبد واياك نستعين »** ، واذا دعا كان دعاؤه باسمهم **« أهدنا الصراط المستقيم »** ، ويقول ما قال الصالحون : **« ... ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان .. »** .
(الحشر : ١٠)

والمؤمن يشعر بأنه يعيش بايمانه وعمله الصالح مع الأنبياء والرسل ، ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة وفى كل عصر ،

قال تعالى : « **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا** » .
(النساء : ٦٩)

* * *

٥ ـ الرضا واليقين :

ان شعور الانسان بالرضا من أول أسباب السكينة والأمن والاستقرار النفسى ، التى هى سر السعادة . وفى الحديث الشريف : « من سعادة المرء استخارته ربه ، ورضاه بما قضى ، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء » . (رواه البزار)

فالرضا نعمة روحية جزيلة ، يصل اليها من قوى ايمانه بالله وحسن اتصاله به . وقد خاطب الله رسوله بقوله : « **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** » . (طه : ١٣٠)

وقال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » . (رواه أحمد ومسلم والترمذى)

فالمؤمن يشعر بنعمة الله عليه فى كل شىء حوله ، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له ، تيسر له معيشته ، وتعينه على القيام برسالته فى الحياة .. انه يرى نعمة الله فى هبوب الرياح ، وسير السحاب ، وتفجر الأنهار ، وبزوغ الشمس ، وطلوع الفجر ، وضياء النهار ، وظلام الليل ، وتسخير الدواب ، وانبات النبات . قال تعالى :

● « **ألم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ..** » (لقمان : ٢٠)

● « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه **بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** • وسخر لكم ما فى السموات **وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » •

(الجاثية : ١٢ ـ ١٣)

● « **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون** • **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون** • **ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون** • **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » •

(يس : ٣٣ ـ ٣٦)

● « **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون** • **وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون** • **ولهم فيها منافع ومشارب ، أفلا يشكرون** » •

(يس : ٧١ ـ ٧٣)

● « **وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا** • **وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا** • **لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** » •

(الفرقان : ٤٧ ـ ٤٩)

وهكذا يرى المؤمن ـ بتوجيه كتاب الله له ـ آثار رحمة الله ونعمته فى كل شىء حوله ، أما نعمة الله عليه فى شخصه فما اعظمها وما اغزرها • فأولها : نعمة الخلق ، وثانيها : نعمة الانسانية ، وثالثها : نعمة العلم والادراك ، ورابعها : نعمة البيان اللفظى والخطى ، وخامسها : نعمة الرزق ، وسادسها : نعمة الايمان والهداية الى صراط الله المستقيم ، وسابعها : نعمة الأخوة والمحبة •• وهذا على سبيل المثال لا الحصر •

وتتفق جميع المدارس الفكرية للعلاج النفسى على أن القلق هو السبب الرئيسى فى نشوء أعراض الأمراض النفسية ، ولكنها تختلف فيما بينها فى تحديد العوامل التى تسبب القلق • وتتفق هذه المدارس

ايضا على أن الهدف الرئيسى للعلاج النفسى هو التخلص من القلق ، وبث الشعور بالأمن فى نفس الانسان ، ولكنها تتبع لتحقيق هذا الهدف أساليب علاجية مختلفة .

وتمدنا دراستنا لتاريخ الدين الاسلامى بأدلة عن نجاح الايمان بالله فى شفاء النفس من أمراضها ، وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة والوقاية من الشعور بالقلق وما ينشأ عنه من أمراض نفسية . ومما هو جدير بالملاحظة أن العلاج يتدخل عادة بعد حدوث الاصابة بالمرض النفسى ، أما الايمان بالله اذا ما بث فى نفس الانسان منذ نعومة أظفاره ، فانه يكسبه مناعة ووقاية من الأمراض النفسية(١٣) . وقد وصف القرآن الكريم ما يحدثه الايمان من أمن وطمأنينة فى نفس المؤمن بقوله :

- « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . (الأنعام : ٨٢)
- « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . (الرعد : ٢٨)
- « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم » . (التغابن : ١١)
- « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (البقرة : ١١٢)
- « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .

(فصلت : ٣٠)

***

---

(١٣) محمد عثمان نجاتى . القرآن وعلم النفس . ص ٢٤١ – ٢٤٢

مقومات المجتمع الاسـلامى

لقد قام المجتمع الاسـلامى منذ نشـأته على عدة مقومات أساسية تتلخص فى الآتى(١٤) :

١ ـ المجتمع الاسلامى قام على الايمان بالمثل والدفع الذاتى الى تحقيقهـا :

لقد قام المجتمع الاسـلامى منـذ اللحظة الأولى للدعوة الاسـلامية على الايمان بالله الواحـد القهار ، والايمان بالمثل العليـا فى حيـاة الانسان . ان الايمان هو الحافز على السـلوك المستقيم للأفراد ، وعلى حسـن العلاقات والمودة فيما بينهم . وليس هنـاك مجتمع انسـانى قائم دون أن يكون بين أفراده هـدف مشـترك ، أو حسـن علاقة وترابط فى سـبيل تحقيق هـذا الهدف المشـترك .. ان نضـال المسـلمين فى سبيل دعوة التوحيـد وكفاحهم المرير ضـد الشرك فى بداية ظهور الاسـلام ، يوضح الى اى مدى قيمة الايمان بالله وحده كهدف مشـترك بين المسلمين الذين آمنوا بدعوة الرسـول عليه الصـلاة والسـلام ـ منذ أن دعا الى الاسـلام سرا ثم جهرا بعـد ذلك ـ كمـا يوضح الى أى مدى لا يحتاج المؤمنـون الى دفع خارجى عن ذواتهم نحو العمل بما يحقق نتائج هـذا الايمان فى حيـاة الانسـان سـواء بمفرده أو فى جماعة .

ان الايمان بالله وحـده هو أسـاس قيـام المجتمع الاسـلامى فى ماضيه وحاضره ، وعن هـذا الايمان تتحقق أهـداف المجتمع الاسـلامى من قوة الترابط وحسـن العلاقات بين الأفراد ، وحسن الاستعداد للدفاع عن الحق والقيم والمثل العليـا . وان وظيفة فروض العبادات هى تأكيد هـذا الايمان من جانب ، وتحقيق المثل الانسانية فى حياة المجتمع الاسلامى

---

(١٤) محمد البهى ، **الاسلام فى حياة المسلم** ، مرجع سـابق . باب ٣ ف ٤

من جانب آخر · وشعارنا دائما ـ فى الماضى والحاضر ـ لا اله الا الله ، محمد رسول الله ·

٢ ـ المجتمع الاسلامى قام على أساس الاقرار بالوجود المشترك ورعاية الحرمات الفردية :

لا يتحقق مجتمع انسانى على وجه الأرض ، اذا ركز الأفراد تفكيرهم فيما يحفظ على كل فرد حياته الخاصة وفيما يصون وجوده الضرورى فحسب · فلا يكون هناك مجتمع انسانى بحال من الأحوال ، اذا كان كل فرد يعتبر نفسه عالما مستقلا عن غيره ، يجول فيه حرا طليقا ، دون أن يرعى حياة هؤلاء الذين يشاركونه فى الوجود ·· ان وجود اى مجتمع بشرى معناه قيود والتزامات يتبادلها أفراده ·· معناه واجبات تؤدى ، وحقوق تؤخذ ، معناه تبادل المعاونة فى السلم ، والتكتل ضد اى دخيل أو خطر خارجى · وهنا يستلزم قيام المجتمع الوعى بين الأفراد والوجود المشترك الذى يظلل حياتهم جميعا ·

والاسلام ـ فى رسالته ـ جاء ليوقظ فى نفوس المؤمنين الشعور بهذا الوجود المشترك ، ووسيلته الى ذلك أن جعل لكل فرد من المسلمين حرمة تراعى ، وحدد له حقا يؤدى ، وفرض عليه واجبا يقوم به ازاء غيره · قال تعالى : « **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون · ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، واوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** » ·

(الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٢)

ان هـذه الآيات الكريمة تحـدد معالم الوجود المشترك بين افراد المجتمع الاسـلامى ، وتجعل لكل فرد فيـه مكانه ، ووضعه ، ومأمنـه فى الحيـاة من ان يعتدى عليـه من غيره فى نفســه ، او فى ماله ، او فى عرضـه ، او فى ان يســقط حقه فى الحيـاة بسبب ضعفه لصغره او وهنـه بشـيخوخته ٠

٣ ـ المجتمع الاسـلامى قام على التعاون :

من الضرورى ـ لبقاء المجتمع الانســانى ـ ان يكون هنـاك ميل واســتعداد لدى الانســان كى يســاعد غيره فى المجتمع الذى يعيش فيـه مع اقرانه ، وان يقوى هـذا الميـل الى المعاونة فى نفس كل فرد بحيث يصبح ذا مظهر عملى فى حيـاة الأفراد ، بحيث ينشـأ بينهم التعاون وتظهر آثاره فى سـد حاجات الأفراد ٠٠ ولا تنحصر حاجـة الفرد فى حيـاته الى المـال او الى تيسـير العمـل له حتى يحصـل على المـال ليدبر به شـئونه ويشـبع حاجاته ٠ بل قـد تكون حاجتـه اشـد الى المعرفة او النصح والارشـاد ، او الى دفع الأذى البـدنى او النفسى عنـه ، حتى لا تكون هنـــاك عقبة فى طريق ســـيره فى المجتمع ٠

ونظرا لأن التعاون له اثره الحيوى فى محافظة الانسـان على حياته المـادية والمعنوية ، فقـد لقى رعاية من الاســلام ، مما جعله مظهرا من مظاهر الامتنان التى امتن به الخالق سـبحانه على المجتمع الاسلامى بعـد قيـامه ٠ فيذكر القرآن الكريم هـذا المجتمع بنعمة التعاون التى انعم بها عليـه ، والتى بلغت مداها حتى اصبحت العلاقة بين افراده علاقة اخوة فى القلب والايمان وفى المحبة والمودة ، اى فى العـــلاقة الانسانية الخالصة ، فيقول تعالى : « ٠٠ **واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** » ٠

(آل عمران : ١٠٣)

ولكى يبقى التعاون ذا اثر حيوى فى المجتمع ، يجب ان يكون تعاونا فيما يؤدى الى الأخوة الانسانية ، والى صهر العلاقات بين الأفراد ، بحيث تكون علاقات مودة ومحبة .. فذلك هو التعاون فى سبيل المصلحة العامة ، وفى سبيل الخير ، الذى لا يتأتى الا اذا ضعفت روح الفردية وسيطرة الأنانية ، واصبح الشعور عند الفرد بحب الغير لا يقل عن الشعور بحب الذات . ولذا كان من وصايا الرسول الكريم ﷺ : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . (متفق عليه)

وهى وصية قصد منها الرسول ﷺ ان يصفى النفوس من الحقد والكراهية والبغضاء ، حتى تكون بعد ذلك على استعداد لأن تتقبل الغير على نحو ما تتقبل نفسها فى الحياة .

٤ ـ المجتمع الاسلامى يقوم على رعاية الطبيعة البشرية للأفراد :

فالمجتمع الاسلامى ـ بانتسابه وانتمائه الى الاسلام ـ لم يخرج عن كونه مجتمعا بشريا يتكون من افراد لهم ميول واستعدادات وسمات فردية تزحى بها طبائعهم ، ككائنات حية لها صفاتها الفطرية المختلفة ، بجانب ما تميزت به من قدرة على التفكير .. ودور الاسلام ازاء هذه الطبائع البشرية لا يتعدى حملها ـ عن طريق الاقناع والايمان ـ على ان تحقق فى حياتها الخير والسلام . وعلى ذلك فان الاسلام يعترف بما لدى الأفراد من استعدادات وميول واهتمامات ، ولا يحاول ان ينكر واحدا منها او يتجاهله . كما لا يحاول ان يعمل على افناء بعضها او محوها حتى لا تظهر فى الأجيال القادمة ، اذ لو حاول ذلك ، لكانت وظيفته تبديل خلق الله ، وليس ذلك من رسالة اى دين سماوى ، فضلا عن تكون رسالة الاسلام وهو دين الانسانية .

ولهذا يقر الاسلام ميل الانسان الى التملك ، وميله الى النسل ، وميله الى العلم والمعرفة ، وميله الى الاجتماع . يقر الاسلام ميل الانسان الى حب الذات وكذا ميله الى مشاركة الغير مشاركة

وجدانية ٠٠ ومن هنا لا يحرم الاسلام على الفرد الملكية الفردية ، على شرط الا تكون ملكية مستغلة يتحكم عن طريقها فى غيره من الأفراد ٠ وقد ايقظ الاسلام فيه روح البذل لغيره ، وحبب اليه المنح والعطاء لصاحب الحاجة ٠ قال تعالى :

- « **يمحق الله الربا ويربى الصدقات ٠٠** » (البقرة : ٢٧٦)
- « **٠٠ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ٠٠** » (النور : ٣٣)
- « **٠٠ وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ٠٠** »

(الحديد : ٧)

- « **وفى اموالهم حق للسائل والمحروم** » ٠ (الذاريات : ١٩)

وكذلك لا يحرم الاسلام على الفرد النسل والانجاب والذرية ٠٠ وانما يوجهه فحسب الى ان يكون تحقيق ذلك عن طريق شرعى هو « الزواج » ، لا عن طريق آخر ٠ لأن ذلك اكرم بالانسان واليق بالمنهج المستقيم فى الحياة ، واحفظ لمستوى الانسان ككائن له وحدة شعور بالمسئولية ، وله وحدة شخصيته واستقلاله فيها ـ وان كان يدور فى اطار الحياة مع غيره فى مجتمعه ٠ قال تعالى : « **ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ٠٠** » ٠

(الروم : ٢١)

وكما لا يحرم الاسلام على الفرد حق التملك وحق النسل ـ لأنهما من فطرته البشرية ـ فانه لا يحرم عليه الاطلاع والبحث والتنقيب عن المعرفة وطلب العلم ٠ ويوجهه فحسب الى ان يستخدم علمه ومعرفته فى سبيل الخير ، فى سبيل البناء والتعمير ، فى سبيل التعاون ، فى سبيل دفع الأذى والمكروه ، فى سبيل رفع مستوى المعيشة للانسان ، وفى سبيل امنه وسلامته بدنيا ونفسيا ، وليس فى سبيل التدمير او التخريب او الايذاء ٠٠ ومعرفة الانسان لا تكون خيرة الا اذا عرف فى النهاية بها ربه وآمن به عن طريقها ، وادرك بها

الكون وخالقه .. فعندئذ فقط يضمن ان يطيع الله فى توجيه ما حصله لمعرفة الكون وطاعة الخالق سبحانه . وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا (اى منفعة مادية) من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة (اى الريح الطيبة) يوم القيامة » . (رواه احمد وابو داوود)

٥ ـ المجتمع الاسلامى ليس مجتمع طوائف او طبقات :

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « **وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** » . (الأنعام : ١٥٣)

بهذه الآية الكريمة يحرص الله جل شأنه على ان يكون المجتمع الاسلامى ـ كما هو ذا غاية واحدة ـ ذا سبيل واحدة ، وذا طريق واحد الى هدف واحد . ويحذر المؤمنين من الفرقة التى تؤدى بالمجتمع الى طوائف ، وهى تلك الفرقة التى تجعل من الافهام للقرآن الكريم ولتعاليم الاسلام ، مذاهب يتعصب اليها التابعون لها ، ويؤثرون الطاعة لها على طاعة القرآن ذاته . وبذلك يتوزع المجتمع الى مجموعات .. كل مجموعة لا ترى الحق الا فيما تتبعه ، وتخاصم المجموعات الأخرى فى سبيل الدفاع عنه ، وعندئذ تكون طاعة كل مجموعة فى واقع الأمر هى الطاعة لانسان ، هو امام ذلك المذهب الذى تتبعه الطائفة . وحينئذ يتردى المجتمع وينزل الى مجال الشخص والمخاصمة فى أمره ، بعد ان رفع الاسلام المؤمنين به الى ما فوق مستوى الأشخاص .. الى المبادىء ، والى الله جل شأنه الذى هو مجمع كل كمال ، ومركز المثل الرفيعة كلها .

ونظرا لأن الاسلام يقر اختلاف الأفهام ، بل ويدفع الأفراد المؤمنين به الى الفهم والتفقه ، ولأنه من جانب آخر لا يقر الطائفية ولا الفرقة على اساس من اختلاف الفهم ، فانه رسم الطريق الى وحدة الأمة بقوله تعالى : « **اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم ،**

فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ٠٠ » ٠ (النساء : ٥٩)

فأوجب طاعة الله فى قرآنه ، وأوجب طاعة الرسول فى أقواله وفى أفعاله مما يعد توضيحا لكتاب الله ، ثم علم أن سيكون حتما اختلاف فى فهم قول الله وقول رسوله ، ولكنه حذر أن يدخل هذا الاختلاف منطقة التنازع بينهم ٠

وعندما قامت الدعوة الاسلامية ، دعت الى تحرير الانسان من أثر العوامل التى أوجدت حواجز وفواصل بين الأفراد ، وخلقت منهم مجموعات وطبقات ٠٠ فانها دعت الى الغاء الاعتزاز بشرف النسب ، وثراء المال ، وسلطة الجاه ، ووضعت جميع المسلمين بالمجتمع وضعا متساويا أمام الله ، وأمام تعاليم رسالة الاسلام ، وهيأت لهم فرصا متكافئة للسعى فى الحياة ٠ ويأتى تفاوتهم بعد ذلك حسبما تدفعهم استعداداتهم ويدفعهم ايمانهم قوة وضعفا ٠

ولذلك ، فالمجتمع الاسلامى ليس مجتمع طبقات ٠٠ أى ليس مجتمعا يقوم على تفاضل فى الوضع الاجتماعى حسب الطبقة التى ينتمى اليها الأفراد ، وليس مجتمعا يقوم على تحكم عنصر الشرف فى النسب أو عنصر الثراء أو عنصر الجاه ٠ فكل ذلك عنصر غريب عن خصائص الانسانية ، بعيد كل البعد عن البشرية ذاتها فى تقييم الأفراد ، وفى وضعهم فى منازل مختلفة فى النظرة والاعتبار ٠٠ ولكن المجتمع الاسلامى أولا وأخيرا مجتمع بشرى انسانى ، يتميز أفراده بما تميزت به البشرية ذاتها بالسلوك المهذب القائم على الادراك المستقيم ، وبالقلب العامر بمحبة الغير ، وهو القلب الذى يؤمن أولا بالله ٠

لقد قرر الاسلام مبدأ المساواة الانسانية ، ومبدأ العدل

بين الجميع ، ثم ترك الباب مفتوحا للتفاضل بالجهد والعمل ، كما وضع فى الميزان قيما أخرى غير القيم الاقتصادية . قال تعالى :

- **« .. ان اكرمكم عند الله اتقاكم .. »** (الحجرات : ١٣)
- **«.. يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ..»** (المجادلة : ١١)
- **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا »** . (الكهف : ٤٦)
- **«.. ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين»** . (غافر : ٦٠)
- **« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض .. »** **(الأعراف : ١٤٦)**
- **« فاذا نفخ فى الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم فى جهنم خالدون »** . (المؤمنون : ١٠١ – ١٠٣)

– وقال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : العز ازارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى عذبته » . (رواه مسلم)

– وعن رسول الله ﷺ انه قال : « اذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادى : الا انى جعلت نسبا ، وجعلتم نسبا . فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم الا أن تقولوا : فلان ابن فلان . فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم » . (رواه البيهقى)

* * *

المعاملات بين الأفراد فى المجتمع الصالح(١٥)

أولا ـ بين الجار وجاره والصديق وصديقه :

*** من القرآن الكريم :**

● « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم .. »

(النساء : ٣٦)

● « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » .

(الزخرف : ٦٧)

● « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا » . (الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩)

*** ومن الحديث النبوى الشريف :**

ـ عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليسكت » . (متفق عليه)

ـ وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

(متفق عليه)

ـ « حق الجار ان مرض عدته ، وان مات شيعته ، وان افتقر اقرضته ، وان اصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح ، ولا تؤذه بريح قدرك الا ان تغرف له منها » . (رواه الطبرانى)

---

(١٥) عز الدين بليق ، مرجع سابق ، ص ٣٧٧ ـ ٤٢١

ـ « من احب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث ، وليؤد الأمانة ، ولا يوذ جاره » (رواه البيهقى)

ـ « خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره » . (رواه الترمذى)

ـ « مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ان لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه . ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير ان لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » (رواه ابو داوود)

* * *

ثانيا ـ بين العامل ورب العمل :

*** من القرآن الكريم :**

- **« .. ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا .. »**
  (يونس : ٦١)
- **« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ».**
  (الأحقاف : ١٩)
- « .. فنعم أجر العاملين » . (الزمر : ٧٤)
- « وان لك لأجرا غير ممنون » . (القلم : ٣)
- « .. انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » (الكهف : ٣٠)
- **« ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » .**
  (يس : ٣٥)

*** ومن الحديث النبوى الشريف :**

ـ « ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده » . (رواه أحمد)

ـ « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » .
(رواه ابن ماجه)

- « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » . (رواه البخارى)

- « ظلم الأجير أجره من الكبائر » (رواه أحمد)

* * *

ثالثا - بين البائع والمشترى والدائن والمدين :

*** من القرآن الكريم :**

● **« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم » .**

(البقرة : ٢٨٢)

● **« .. وأحل الله البيع وحرم الربا .. »** (البقرة : ٢٧٥)

● **« يمحق الله الربا ويربى الصدقات .. »** (البقرة : ٢٧٦)

● **« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم .. »** . (النساء : ٢٩)

● **« والى مدين أخاهم شعيبا ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا**

الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم أن كنتم مؤمنين » . (الأعراف : ٨٥)

● **« .. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن .. »** (النساء : ٣٢)

*** من الأحاديث النبوية :**

ـ « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة » . (رواه الترمذى)

ـ « دع الناس يرزق بعضهم بعضا » . (رواه البيهقى)

ـ « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق » .
(رواه أحمد)

ـ « رحم الله رجلا سمحا اذا باع ، واذا أشترى ، واذا اقتضى » .
(رواه البخارى)

ـ « من حمل علينا السلاح ، فليس منا ، ومن غشنا ، فليس منا » .
(رواه مسلم)

ـ « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس والجذام » .
(رواه أحمد وابن ماجه)

ـ « لا يحتكر الا خاطىء » . (رواه مسلم)

ـ « اياكم والدين فانه هم بالليل ومذلة بالنهار » .
(رواه البيهقى)

ـ « رأيت على باب الجنة مكتوب : القرض بثمانية عشر والصدقة بعشر ، فقلت : ياجبريل : ما بال القرض أعظم أجرا ؟ قال : لأن صاحب القرض لا يأتيك الا وهو محتاج ، وربما وقعت الصدقة فى غنى » .
(رواه الطبرانى)

ـ « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه » .

(رواه احمد)

ـ « لا تخيفوا انفسكم بعد امنها ، قالوا : وما ذاك يارسول الله ؟ قال : الدين » . (رواه احمد)

* * *

رابعا ـ التعاون على البر والتقوى :

* من القرآن الكريم :

● « .. وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .. » . (المائدة : ٢)

● « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا .. » . (آل عمران : ١٠٣)

● « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » . (الحجرات : ١٠)

● « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، واولئك لهم عذاب عظيم » . (آل عمران : ١٠٥)

● « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .. » (الأنفال : ٤٦)

● « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم » . (التوبة : ٧١)

* ومن الحديث النبوى الشريف :

ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

(رواه البخارى ومسلم)

ـ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .
(رواه البخارى ومسلم)

ـ « المؤمن مرآة المؤمن . والمؤمن اخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه » . (رواه ابو داوود)

ـ « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، ان كان ظالما فاردده وان كان مظلوما فانصره » . (رواه البخارى)

ـ « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا » . (متفق عليه)

ـ « ان لله عبادا اختصهم لحوائج الناس ، يفزع الناس اليهم فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله » . (رواه الطبرانى)

ـ وعن على كرم الله وجهه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « ياعلى . ان الله تعالى خلق المعروف ، وخلق له أهلا فحببه اليهم ، وحبب اليهم فعاله ، ووجه اليهم طلابه ، كما وجه فى الأرض الجدبة لتحيا به ، ويحيا به أهلها . ان أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة » .

* * *

خامسا ـ النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

*** من القرآن الكريم :**

● **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .** (آل عمران : ١٠٤)

● **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. » .** (آل عمران : ١١٠)

● **« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .** (المائدة : ٧٨ ، ٧٩)

● « فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » . (الأعراف : ١٦٥)

● « والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . (سورة العصر)

● « .. وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه انيب » .
(هود : ٨٨)

* ومن الأحاديث النبوية الشريفة :

ـ « الدين النصيحة » . (رواه مسلم)

ـ عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : « بايعت رسول الله ﷺ على اقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم » .
(متفق عليه)

ـ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » . (رواه مسلم)

ـ « الآمر بالمعروف كفاعله » . (رواه الديلمى)

ـ « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .
(رواه الترمذى)

ـ « افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .
(رواه ابو داوود والترمذى)

ـ « لا ينبغى للرجل ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يكون فيه خصال ثلاث : رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى ، عالم بما ينهى ، عدل فيما ينهى » . (رواه الديلمى)

ـ « يا ايها الناس مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر قبل ان تدعوا الله فلا يستجيب لكم ، وقبل أن تستغفروه فلا يغفر لكم ، ان الأمر بالمعروف

لا يقرب أجلا ، وان الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم وعمهم البلاء » . (رواه الطبرانى)

ـ « اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه » .
(رواه الديلمى)

ـ عن ابى زيد أسامة بن زيد بن حارثة ، رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه (أى أمعاؤه) فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع اليه أهل النار فيقولون : يافلان ، مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » . (متفق عليه)

* * *

سادسا ـ الاصلاح بين المواطنين والمبادرة الى فعل الخيرات :

*** من القرآن الكريم :**

● **« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .**
(الحجرات : ٩ ـ ١٠)

● **« لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .** (النساء : ١١٤)

● **« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا ان الله شديد العقاب » .** (الأنفال : ٢٥)

● **« .. فاستبقوا الخيرات .. » .** (البقرة : ١٤٨)

● « ·· **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا ··** » ·
(المزمل : ٢٠)

● « ·· **وما تنفقوا من خير فان الله به عليم** » ·
(البقرة : ٢٧٣)

● « ·· **وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** » · (الحج : ٧٧)

*** ومن الحديث النبوى الشريف :**

– عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا **بالأعمال** الصالحة فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، **يبيع دينه بعرض من الدنيا** » .
(رواه مسلم)

– وعنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق ، فقال : والله لأنحين هـذا عن المسلمين لا يؤذيهم ، فأدخل الجنة » . (رواه مسلم)

* * *